حكاية القط والعصفور .. !!

د. جابر قميحة

كنت في الرابعة من عمري .. مسالماً .. وديعاً .. هادىء الطبع، وكنت موضع عناية الأهل جميعاً وحبهم وتدليلهم، لأنني - كما كانوا يرددون دائماً - «آخر العنقود».. أي آخر الأبناء وأصغرهم. وكنت أسمع أفراد الأسرة كثيراً ما يرددون في ضيق واشمئزاز وغضب:

- القط الأعور ..

- منّه لله

- ربنا ينتقم منّه.

ولم أكن أعرف سر نقمة الأسرة على هذا القط الأعور المسكين إلا عندما رأيته ذات يوم، وهو ينطلق بسرعة مذهلة، وقد أطبق فكيه على «كتكوت» من الكتاكيت التي كانت أُمي مغرمة بتربيتها مع غيرها من الدواجن في حظيرة واسعة فوق سطح المنزل.

وأصبح اسم «القط الأعور» كابوساً مرعباً يقلق مضاجع الجميع. فهو دائم الإغارة على صغار الطيور المنزلية، وما يفعله بدواجننا يفعله كذلك بدواجن الجيران

ولم أتأمل هذا القط إلا مرة واحدة في حياتي: كان اليوم دافئاً، والشمس مشرقة بعد عدة أيام من المطر المتواصل، رأيته متمدداً على سور سطحنا: كان سواده حالكاً شديد الحلكة، ولكن أقبح ما فيه الناحية اليمنى من وجهه، حيث انطمست عينه اليمنى تماماً كأنما ولد بعين واحدة، وفوق منطقة العين المطموسة أثر شجّ قديم يميل إلى اللون الرمادي، وقد خلا من الشعر تماماً.

ولم يطل تأملي أكثر من خمس دقائق، بعدها نهض ببطء، وتثاقُل، وتمطى، ثم قفز إلى سطح الجيران.

***

وذات ليلة، ونحن نتناول طعام العشاء أخذت أمي تتحدث لأبي عن القط الأعور حديثاً طويلاً لم ألتقط أغلبه، ولكني سمعت رد أبي وهو يقول في غضب:

- ليس معقولاً!... في هذه الحالة .. يبقى قَتْلهُ حلالاً.

وعلمت من أمي أن القط الأعور شن صباح اليوم غارة على حظيرة دواجننا فوق السطح، وكان ضحيته سرباً من «البط الأخضر» عدده ثلاثون بطة، ولم يرحم طفولته التي لم تر النور خارج البيض إلا من أسبوع واحد، فالتهم ما التهم، ومات الباقي متأثراً بجراحه، أومن شدة الرعب.

وسمعت أبي يكرر مقولته وهو يغسل يديه بعد أن انتهى من العشاء:

- شرعاً - قَتْلُه حلال.

فأردفت أمي قائلة:

- منه لله ... ربنا ينتقم مه.

- ومن يومها .. وأنا أتمنى أن تواتيني الفرصة للقضاء على القط الأعور، ويكون مصرعه على يديّ، فأنال إعجاب والديّ والأهل جميعاً، وتسري شهرتي بين أطفال الحارة، وربما في المدينة كلها.

ومرت عدة أيام لم يظهر خلالها القط الأعور.. ترى هل أحس بما عزمت عليه، فأخذه الخوف، وغادر الحارة، بل الحي كله؟ ووجدتني أستريح لهذا الخاطر...

وعدت أفكر من جديد: أين ذهب القط الأعور، وهو الذي كنا نراه كل يوم منطلقاً من حظيرتنا وبين فكيه فريسة: بطة خضراء ... كتكوت ... أرنب صغير؟!

وعلى طعام العشاء قال أبي:

- القط الأعور لم يظهر من أسبوع ..

- لعل الله قد انتقم منه.

وظهرت مسحة من الارتياح على وجوه الجميع بعد كلمة أمي الأخيرة.. وأردف أخي الأكبر قائلاً:

- يظهر أن ربنا انتقم منه فعلاً .. أنا رأيت جثة قط أسود يشبهه تماماً ... ملقاة على ناصية حارة أم عبده .. وازدادت أمارات الطمأنينة اتساعاً على الوجوه.

***

ومر أسبوع آخر على غياب القط الأعور.. أسبوعان مضيا، ولم يظهر القط اللعين ... وكان الجميع يشعرون بالراحة والسعادة لانقطاع شره واختفائه عن الأنظار. أما أنا فقد أخذني شعور بخيبة الأمل، لعدم تحقق أمنيتي التي كنت أحرص على تحقيقها بأن يكون مصرع القط الأعور على يديّ.

ثم كان صباح يوم جمعة لا أنساه أبداً ... إذ سمعت صوت أختي الكبرى تناديني من حجرة الضيوف، وفي صوتها

تمنيت أن تواتيني الفرصة لأصرع القط وأتخلص من خوفي

رنة فرح، لأنها استطاعت أن تمسك بعصفور دخل الحجرة خطأ، وهي تقوم بتنظيفها وتنظيمها، وعجز عن الخروج بعد أن أغلقت دونه كل النوافذ الزجاجية: ومدت إليّ يدها بالعصفور:

- هدية مني لك .. مبسوط؟ لكن انتبه له حتى لا يطير منك.

وبقدر فرحي بالعصفور كان خوفي أن يفلت من بين أصابعي ويطير. ولكن كيف ألْهو به وهو لا يفارق يدي بهذا الشكل. وراودتني فكرة سرعان ما نفذتها.. حقاً إنها فكرة رائعة: ربطتُ العصفور من رجله في خيط طوله قرابة متر وخوفاً من أن يفلت الطرف الآخر من يدي.. ربطته في عصا أبي من ناحية يدها المعقوفة، ودخلت غرفة الضيوف، وقد أحكمتْ أختي إغلاق نوافذها الزجاجية، وأمسكت العصا الغليظة من طرفها الآخر، وكدت أطير فرحاً، وأنا أرى عصفوري يطير يمنة ويسرة، وهو مشدود إلى الخيط الذي أحْكمتُ ربطه في العصا. كان الوقت يمضي سريعاً، وأنا في سعادة غامرة، وخصوصاً وأنا أرى العصفور يصطدم بزجاج النوافذ محاولاً الانطلاق إلى الحرية، وهو لا يعرف أن الزجاج يحول دون ما يريد، فلما بلغ به التعب مداه حط على الأرض وهو يرتعش في فزع مكتوم.

وفجأة حدث ما لم يخطر ببالي.. رأيت القط الأعور يدخل الحجرة في سرعة مذهلة، وينقض على عصفوري المتهالك، ويطبق عليه فكيه، ولم يعد في يميني إلا عصا أبي وفي يدها المعقوفة الخيط الذي انفصل عنه عصفوري المسكين.. كل ذلك تم في لمح البصر، وبقدر ما أصبت بالفزع للمفاجأة التي لم أكن أنتظرها، لأنني بل الأسرة كلها كنا نعتقد أن القط الأعور في عالم الأموات من أسبوعين، سرعان ما غمرني شعور قوي بالارتياح ...

- آه هذه فرصتي التي قد لا تتكرر ... القط الأعور سعى إليّ بأرجله .. ليكون مصرعه على يديّ ... وأكون بطلاً في أنظار الجميع ....

وبحركة عفوية ألقيت بكل ثقلي على الباب، وأحكمت إغلاقه من الداخل «بالترباس» ... هأنذا أواجه هذا الأعور الدميم .. ورن في أذني كلمات أبي «هذا القط قتله حلال .. حلال شرعاً» .. وشعرت بقوة غير عادية تسري في بدني، فرفعت العصا، وأهويتُ بها على القط، ولكنه أفلت منها ببراعة، وتخلى عن عصفوري الذي كان جثة هامدة.. وهرب القط إلى الزاوية اليمنى البعيدة من الحجرة ... ووجهت إلى القط ضربة أخرى لم تصب منه إلا قدمه اليسرى الخلفية، فصرخ صرخة غريبة متحشرجة، ووثب إلى إحدى النوافذ، فاصطدم رأسه بالزجاج الذي اعتقد أنه مَخْرَج إلى الشارع لا يمثل عائقاً عن الخروج، وأخذت ألاحقه بضرباتي الشديدة التي كانت تخطئه، وأخذ يقفز في محيط الحجرة.. كان يأتي على محيط الحجرة في قفزتين .. كل قفزة تمثل نصف دائرة .. ثم يسقط على الأرض للحظة واحدة فأهوي عليه بالضربة التي كان يتفاداها بالقفزة الثانية.. تكرر ذلك أكثر من عشر مرات .. وحماستي وقوتي تزداد ... لحظات .. وأحظى بالنصر والبطولة في هذا الصراع.. وأخيراً أصابت عصاي ظهر القط .. وأحسست بالرعب الشديد عندما بدأ يصرخ صرخات هستيرية شديدة ...

وتغير الموقف تماماً .. فقد تحول القط إلى حيوان أسود

غريب السحنة .. أعور العين أكبر من القط أربعة مرات على الأقل ..

.. وبدأ هذا الحيوان يهاجمني .. وأنا أهرب منه في أركان الحجرة وأصرخ مستغيثاً بصوت مخنوق .. ووثبت إلى الباب .. محاولاً فتح الترباس ... ولكن ما كانت يداي المرتعشتان تتمكنان من ذلك .. وسمعت صوت أبي وأمي وأختي الكبرى ... خارج الحجرة...

- افتح الباب ... افتح الباب بسرعة ...

- ما أقدر الحقوني ... القط الأعور سيقتلني.

ودفعوا الباب بشدة .. وانكسر الترباس .. وارتميت على صدر أبي ... وأنا أصرخ ...

- القط الأعور ... القط الأعور.

- أين يا بني ... لا قط ولا شيء.

ونظرنا جميعاً في كل أرجاء الحجرة ... فلم نجد للقط الأعور أي أثر ... ولم نجد أي أثر لعصفوري الشهيد .. لم نجد إلا عصا أبي ملقاة في أحد أركان الحجرة، وفي يدها المعقوفة طرف الخيط.

وأخذت أمي وأختي تهدئان من روعي، وانهالت عليّ قبلاتهما الحانية ... لم يمض على ما حدث أكثر من دقيقتين .. وفجأة اخترق أسماعَنا صوتُ مظاهرة جماعية يأتي من الشارع المقابل .. ويقترب من بيتنا ... وأراد أبي أن ينسيني ما أنا فيه فأخذ بيدي إلى الشرفة الأرضية التي تطل على الشارع ...

- ولا يهمك .. لا تخف يا حبيبي - تعال تفرّج على العيال ... وانظر ماذا يفعلون.

كانت مظاهرة من عشرات الأطفال .. كانوا يهتفون هتافات جماعية منغومة:

- قتلوه ... قتلوه ..
- يستاهل ...
- القط الأعور ...
- يستاهل ..
- ابن الحرمية
- يستاهل ...
- خطّاف الفرخة ...
- يستاهل ..
- قتلوه .. قتلوه ..
- يستاهل ..

وتنفستُ الصعداء .. وقد أمسك طفل بذيل جثمان القط الأعور وقد انتفخ بطنه، وهو يسحبه على الأرض بين تهليل الأطفال وهُتافاتهم ... إنه هو ... هو بعينه العوراء المطموسة ... والشج الرمادي الخالي من الشعر فوقها .. ولكني رأيت فوق عينه السليمة أثر دم متجمد .. الحمد لله فقد استراحت أمي واستراح الجيران من شر هذا اللعين .. وإن جاء مصرعه على يد غيري ... ولكن طفر إلى ذهني سؤال... هل من المعقول أن يقتل القط بهذه السرعة؟ إنه لم يفر من غرفة الضيوف إلا من خمس دقائق فقط، ثم كيف تكونت هذه المظاهرة بهذه السرعة؟ وكيف تورم جثمانه خلال

تجمدت في مكاني عندما تحول القط إلى حيوان غريب أكبر من حجمه مرات!

هذه الدقائق؟.

ولم يقطع تفكيري إلا صوت أبي، وهو يتحدث إلى خالد أكبر الأولاد، وقائد المظاهرة..

- من قتله يا خالد؟

- عم حسن الفران .. قتله بضربة واحدة بحديدة الفرن الساخنة ...

ثم واصل كلامه في شيء من الزهو:

- أنا رأيته وهو يقتله لأنه حاول خطف رغيف من طاولة العيش...

- متى حصل هذا؟.

- أمس ... بعد العشاء .

وندّت مني صرخة مفزوعة، ووقعْتُ مغشياً عليّ.

الرؤية الإسلامية في أدب المقال الأردي

د. سمير عبد الحميد إبراهيم

شهد أدب المقال الأردي تطوراً كبيراً رغم عمره القصير، ويُعَدُّ سيد أحمد خان (باني جامعة عليكرة) مؤسس أدب المقالة في الأردية، فهو أول من بدأ هذا الفن، متأثراً بفن المقال الذي شاع في الغرب، ورغم أنه ركز على الأسلوب العلمي في مقالاته فإن أحداً لا ينكر أنه ارتقى بالنثر الفني في الأدب الأردي، ولا يمكن لأحد أن ينكر فضله في تطوير النثر الأردي بشكل عام[1].

ثم تطور أدب المقال الأردي على يد أدباء جاؤوا بعده، منهم محمد حسين آزاد، ومولوي نذير أحمد دهلوي، وألطاف حسين حالي، ومولوي ذكاء الله دهلوي، وعبد الحليم شرر ومولانا أبو الكلام آزاد.

تأثر أبو الكلام آزاد بحركة سيد أحمد خان الأدبية والإصلاحية فراح ينشر مقالاته في الصحف والمجلات الأردية المنتشرة عبر الهند، ولد أبو الكلام آزاد في ذي الحجة، عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م ومن الجدير بالذكر أن أعمامه من دهلي وأخواله من مكة المكرمة، كما أن حياته بدأت مع أبيه في البنغال، لهذا لم تكن الأردية في البداية لغته الأم، ومن هنا جاء استخدامه للألفاظ العربية والفارسية في كتاباته، بطريقة لم تكن معهودة لدى معاصريه.

سافر آزاد إلى البلاد العربية سنة ١٩٠٥م وسنة ١٩٠٩م وأصدر عام ١٩١٢م مجلة الهلال الأسبوعية على نمط الهلال المصرية، ثم غير اسمها إلى البلاغ سنة ١٩١٥م وأغلقت عام ١٩١٦م وعادت للصدور عام ١٩٢٧ باسم الهلال مرة أخرى، وتوفي عام ١٩٥٨م.

أغرق أبو الكلام آزاد في استخدام الألفاظ والتراكيب العربية، وتأثر كثيراً بما شاهده في مصر من نهضة صحفية، وجعل لمجلة الهلال الأردية مكانة بين الصحف والمجلات التي كانت تصدر في الهند، وتناولت مقالاته قضايا الدين والدنيا، ونقتطف هذه الفقرة من جريدة الهلال الصادرة في ٣٠ يوليو ١٩١٣م.

« ... وهكذا فلا بد من التفكير في زاد الطريق قبل السفر، ولا بد من بناء السفين قبل وقوع الطوفان؛ لأن السفر قريب، والطوفان ظهرت في الأفق علاماته، فمن لا يملك زاد الطريق، سيموت جوعاً، ومن لا يمتلك السفين سيبتلعه الطوفان، فإذا كنت تُشاهد الأفق وقد ملأه الغبار، وضوء النهار وقد اختفى، وراء السحب المتجمعة في السماء، فأفهم أن لحظة البرق وسقوط المطر قد حانت ...

ماذا أصابكم؟! إن مطلع أمن الأمة وسلامتها مُغبّر، ونور الدين الإلهي قد اختفى داخل ظلمة الكفر وطوفان الإلحاد ... لكنكم لا تصدقون أن الجو في سبيله إلى التغيّر، وتقفون صامتين دون حراك، لا تستعدون لما هو قادم، إن النجاة تكمن في أن تقطعوا علاقاتكم بالممالك الإنسانية، وتستظلون بظل طاعة المملكة الإلهية، ألا تريدون أن يعلو صوتُ منادي عرش الجلال الرباني وتكون الأرض لله وحده..».

* * *

(١) سافر سيد أحمد خان إلى أوربا ليطلع على ما أحرزته من تقدم وعاد إلى الوطن في أكتوبر ١٨٧٠م وأصدر صحيفة «تهذيب الأخلاق» فصدر العدد الأول يوم عيد الفطر غرة شوال ١٢٨٧هـ ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م.

بعد قيام باكستان ارتقى فن المقال في الأدب الأردي بسرعة، وكان الفضل في ذلك لأدباء الأردية، من أمثال نصير آغا، جاويد صديقي، أمجد حسنين وممتاز مفتي وغيرهم.

والأديب ممتاز مفتي (٨٣ عاماً) - أطال الله في عمره- له رؤية خاصة في أدبه ككل، فهو يكتب في فن القصة، وفي أدب الرحلة، بالإضافة إلى براعته في فن كتابة المقال الأدبي.

ويتهافت القراء هذه الأيام على مقالاته، وينتظرون صدور الأعداد الجديدة من المجلات الأدبية بفارغ الصبر، ليطالعوا ما يكتب.

والأديب ممتاز مفتي من مدرسة تؤمن بواجب الأدب ورسالته الرامية إلى الإصلاح، ويعارض فكرة الأدب للأدب.

وهو يرى أن مهمة الأدب الأساسية هي السمو بالإنسان إلى مرحلة الإنسانية ليكون أقرب أكثر وأكثر من خالقه جل وعلا، فالأدب الصحيح يوقظ العواطف السوية في داخل الإنسان. ويجعل قلبه يتسع ليشمل الآفاق، حين يصل إلى درجة الإيمان العالية، كما يقول محمد إقبال في بيان الفرق بين المؤمن والكافر:

الأدب الصحيح يوقظ العواطف السوية داخل الإنسان ويجعل قلبه يتسع ليشمل العالم

إنما الكافر حيرانٌ له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الآفاق فيه

ومن هنا كانت كتابات الأديب ممتاز مفتي محاولة للتركيز على جانب اللاشعور عند الإنسان، والتركيز على الصراع النفسي الذي يظهر عادة واضحاً على وجه الإنسان.

سافر الأديب إلى الحج عام ١٩٦٨م، وتردد في الكتابة عن رحلته، ثم قرر أخيراً أن يكتب عن مشاعره في الحج فقد وجه نفسه مشدوداً إلى بيت الله وإلى مسجد رسول الله ﷺ فَعَبَّرَ عما بداخله قائلاً:

«.. حين سمعت لأول مرة الأذان في الحرم، انتفضتُ، ما هذا الشيء؟ انتابتني قشعريرة، شعرت وكأنني سمعت الأذان لأول مرة في حياتي، لقد هزني هذا النداء بعنف، فنهضت .. من ذا الذي ناداني؟ من ذا الذي ناداني؟ لقد أيقظ أذان الحرم الشريف النائمين وأقام القاعدين، وأجرى الواقفين، ليس للجري والفرار، بل للوصول إلى الهدف، أنا قادم، أنا قادم لبيك .. لبيك، ذلك الأذان كان شحنة جرت في العروق مجرى الدم، وشعرت أن الأذان ليس من أجل الصلاة فقط بل هو أيضاً نداء من أجل الجهاد».

بعد أداء فريضة الحج والعودة إلى كراتشي، انتاب الأديب شعور بالإحباط، كان يود البقاء بجوار بيت الله، كان يود الاستمرار في زيارة مسجد رسول الله، يقول:

«وتحطم ذلك الإحساس السحري بوصولي إلى كراتشي، انقطع ذلك التيار الذي أضاء بداخلي، كأنني مصباح كهربائي، وهذا الجو الذي عشت فيه عشرين يوماً نتيجة هذه العاطفة الجياشة، والذي أضاف لِحبلَّتي ما جعلها كالحلوى، هذا كله ذاب وتلاشى، إنطفأ النور، وكانت كراتشي، وكنت أنا، وانحرفت السيارة، وبعدها سمعت نعيق الغربان السود، وفي هذا اليوم ولأول مرة أحسست أن وطني ميدان تمرح فيه الغربان السود، كلها تنعق ... أغمضت عيني، لا شك أن حواليّ مملوء بالغربان. لا شك أنها كلها تنعق، لكني لست بغراب، أنا حاج عائد من أداء فريضة مقدسة...».

وهكذا فرض الأديب نفسه على شريحة كبيرة من القراء، ونال اعتراف النقاد بعظمته. ذلك لأنه

يعالج في مقالاته موضوعات وقضايا تواجه كل فرد في المجتمع، قضايا يشعر القارىء أنها تمس حياته، وتعبر عما بداخله، قضايا يتحرج البعض من الخوض فيها أو حتى الإشارة إليها، إلا أنها رغم هذا كامنة بداخل البعض، أحياناً في شعوره، وأحياناً في لا شعوره.

ونقدم للقارىء العربي نموذجاً من سلسلة مقالاته بعنوان «تلاش أي البحث» وشرح الأديب قصده من عنوانه هكذا: بحث فيما لا نرى أي حرج البتة في الحديث عنه - وهذه مقتطفات من بعض ما نشر.

(١)

الكتب الإسلامية

من خصائص الكتب الإسلامية أنها لا تكتب للمبتدئين من أمثالي فهي إما أن تكتب للعلماء، وإما للقراء الذين يميلون إلى كل ما هو صعب، أو يميلون إلى ما يحرك المشاعر والعواطف، ففي مثل هذه الكتب ألفاظ لا يفهمها إلا جهابذة العلماء، بالإضافة إلى قضايا الفقه الصعبة، وفي بعض هذه الكتب توجد مجاهدات وأذكار وأدعية، وهذه كلها أمور لا يفهمها الإنسان العادي مثلي.

لم يعد الأذان يقتصر على الدعوة إلى الصلاة فقط بل أصبح نداء لإيقاظ الغافلين وهتافاً للمجاهدين

حدث مرة وذهبت إلى مهرجان «جماعة التبليغ» في بلدة راى وِند [بباكستان] وكان ذهابي مجرد مصادفة، وهناك كان الجو رائعاً، كله بهاء ورونق، كان العلماء يلقون بخطبهم ومواعظهم هنا وهناك، وأقول لكم بكل صراحة، مع أن الوعظ كان فيه كل شيء: كان فيه حماس، كان فيه عاطفة، كان فيه روعة فن الخطابة، لكن لم يكن فيه تأثير، كما لا يمكن القول بأن فيه صفات البحث، فاليوم تشيع «الندوات» و«الحلقات العلمية» حيث يقوم الباحث والخطيب بإلقاء بحثه أو خطبته ثم يناقشه السامعون.

في رأيي وإن كان في الخطبة عنصر العظمة، فإن فيها استعراضاً وتعظيماً للنفس، وما يكون فيه عنصر الاستعراض والتعظيم يستلزم بالضرورة محاولة التأثير على الآخرين، وهذا الأمر لا يدخل إلى القلب ولا يؤثر فيه، فخطب العلماء تُعد أولاً قبل إلقائها، ثم تطبع وتوزع، فقط تبقى مسألة تحريك شفاه الخطيب، والقلب لا دخل له هنا، فإذا كان لا دخل للقلب في هذا الأمر فكيف إذن يوجد التأثير.

في مهرجان «جماعة التبليغ» عرضت عشرات وعشرات من الكتب، سألت عن ثمن كتاب من المعروض فقال المسؤول: «سبع روبيات» - تحيرت، كتاب يصدر بهذا الشكل الرائع، خط جميل، طباعة جيدة، وحجم كبير، لا يمكن أن يقل ثمنه عن مائة روبية. فسألت متحيراً: «هذا السعر رخيص جداً ثمن الكتب العلمية والأدبية بهذا الحجم يصل إلى أضعاف أضعاف هذا الثمن».

فابتسم المسؤول قائلاً: «عادة ما يكون ثمن الكتب الدينية رخيصاً، لأن الكتب الإسلامية في باكستان تباع وتوزع على نطاق واسع، وتكون التكلفة بالتالي قليلة، كما أن نسبة الربح أيضاً ليست عالية»، وسألني المسؤول:

- .. «أي كتاب تريد أن تشتري؟».

- .. «أُريد أن أشتري كتاباً يشرح بطريقة بسيطة سهلة ما هو معنى «المسلم»؟».

فنظر إليّ متحيراً وقال: «هل أنت غير مسلم؟».

- «بالطبع لا» أجبته بمنتهى الإتزان، «أنا مسلم».

فقال: «لا أراك تمزح إذن؟».

فأجبته: «أنا في الأصل مسلم بالمولد، مسلم بالكلمة» فضحك وقال: «من ينطق بالشهادتين فهو مسلم».

- «صحيح لكن هذا يتعلق بإحصاء السكان المسلمين، فأنا مسلم طبقاً للإحصاء السكاني، لكن أريد أن أعرف ما هو معنى المسلم؟».

فقال: «إذن اقرأ كتباً عن الإسلام».

فأجبته: «الإسلام في الكتب شيء، والمسلم شيء آخر».

***

(٢)

القُرآنُ الكَرِيم

أقول لكم ولا حرج في ذلك: إنه نتيجة عاطفة الاحترام التي تسيطر على زوجتي، لم أتمكن حتى اليوم من قراءة القرآن الكريم!!

بلغت من العمر ٨٨ عاماً ولم أعرف معرفة صحيحة أن الله أرسل رسالة إلى بني البشر!!

بالتأكيد سوف تضحكون على كلامي إذا قلت إنني عرفت الله سنة ١٩٥٥م- بعد رحلتي لحج بيت الله- بيني وبين الله رباط محبة، أشعر به كلما اختليت بنفسي، أشعر بالله أقرب إليّ من حبل الوريد، يحتويني بكرمه وعطفه كلما ألمت بي ضائقة، وبرغم كل هذا أشعر أنني أجهل الرسالة التي أرسلها الله إلى عباده، والأحكام التي صدرت لهم، ولهذا لم أقرأ القرآن كاملاً حتى اليوم، تأكدوا أنني من كل قلبي أؤمن بالقرآن الكريم كتاب الله، وأعرف هذا وأدركه تماماً، وكُلِّي يقين أن الدين عند الله الإسلام، وسوف يدرك هذه الحقيقة علماء الدنيا ومفكروها وأدباؤها ومثقفوها في القرن الواحد والعشرين، سيدرك

إذا كان الخطيب يحرك شفتيه فقط في مخاطبته الناس فكيف يتاح له التأثر؟

الجميع أن الإسلام هو الدين الوحيد المقبول والصالح لهذا العصر، ورغم كل هذا وبسبب عاطفة الاحترام المتغلغلة في كيان زوجتي فإنني لم أُطالع القرآن الكريم كاملاً حتى اليوم ولم أستطع ذلك.

زوجتي سيدة فاضلة.

تؤدي الصلوات في أوقاتها، ولو حدث أن فاتها «فرض» راحت تتأسف طوال اليوم، وتستغفر الله وتستمر دون توقف في التلاوة تُكَفِّر عن ذنبها .. في قلبها عاطفة جياشة تجاه القرآن الكريم، وهي تضع المصحف لا في «حقيبة» واحدة من الحرير بل في عدة حقائب، كأنها لفائف، واحدة من داخل الأخرى ثم تضع المصحف في الرف الأعلى من خزانة الكتب، وإذا حدث ووضعت المصحف في الرف الأوسط، غضبت لأنها ترى أن وضعه هكذا يتنافى مع الاحترام، وإذا حدث ووضعت المصحف على الطاولة غضبت غضباً شديداً قائلة: الطاولة ليست مكاناً طاهراً.

وكم تمنيت من كل قلبي أن أضع القرآن، أقصد المصحف. في مكان يجعله قريباً من متناول يدي، كبقية المصادر التي أرجع إليها بين الحين والحين، أفتحه، أقرأ ما أريد، ثم أعيده بالقرب مني، ثم أتناوله ثانية حينما أشاء، أفتح في الموضع الذي أريد، وأقرأ في سطوره، أطالع آياته من هنا أو من هنا بحثاً عما أريد، لكن زوجتي ترى بعكس ذلك.

وقد راج بين الشباب الأولاد والبنات أن يضعوا كتب الشعر والنثر قريباً منهم حيث وُجدوا، يطالعونها بين الحين والحين، يقرؤونها ويعيشون ويتفاعلون مع ما يقرؤون ... كم تمنيت من كل قلبي أن أحمل معي المصحف. حيثما ذهبت، لأنني أؤمن بأنه كتاب علم، يمكن أن أقرأ فيه آيات الذكر

الحكيم وأنا جالس، وأنا واقف، ولكن ماذا أفعل، إن زوجتي لا تسمح أبداً بهذا الأمر.

ورأيت أن المخرج الوحيد الذي يمكنني من قراءة القرآن الكريم هو البحث عن نسخة من المصحف لا تتضمن المتن العربي، فقط ترجمة المعنى، وحاولت محاولات مستميتة أن أحصل على مثل هذه النسخة ولم أوفق حتى الآن.

لي صديق يدعى محمد طفيل، رجل مثقف، عالم جليل، طاف الدنيا كلها، مجتهد مجد، مطلع على الثقافات الحديثة، عارف بالقرآن الكريم، هدفه الوحيد في الحياة أن يشد انتباه جميع الناس إلى القرآن الكريم، وشعاره: إقرؤوا القرآن، تدبروا في القرآن، عيشوا حياة القرآن. وأكثر من هذا يقوم بتوزيع القرآن الكريم والكتب المتعلقة بالقرآن الكريم مجاناً على الناس.

ذات يوم رجعت إلى بيتي فوجدت عدة نسخ من المصحف الشريف جاء بها صديقي في غير وجودي، وتحيرت من هو هذا الشخص الذي ترك هذه النسخ التي تساوي آلاف الروبيات؟! وحين التقيت به بعد ذلك وسألته لماذا هذه النسخ الغالية من طبعات القرآن الكريم، فقال:

«لقد قرأت مؤلفاتك، كتاباتك لها تأثير في الناس، الشباب يطالع كتاباتك، أعتقد أن الله قد وهبك القدرة على الاتصال بقلوب الناس، لذا قدمت لك هذه النسخ لعلك تستفيد منها فتذكر في كتاباتك ما يُعَلِّمُه القرآن للناس».

سمعت كلامه ودُهشت. للحظة ثم قلت له:

«سيد طفيل، أنا نصيبي من التعليم الديني قليل جداً، بل أنا جاهل تماماً، كما أنني غير متمكن في اللغة» أما زوجتي فقد رأت هذا الكم من النسخ فاضطربت وقالت:

واجب الدعاة والأدباء أن يشدوا انتباه الناس إلى القرآن ليتدبروه ويفهموه ويعملوا بما فيه

«كيف أصنع الآن مَحَافظ لهذه النسخ، ثم أين أضعها كلها لقد امتلأت أرفف الخزائن كلها، عليك أن تعيد إليه هذه النسخ بعد أن تشكره».

(١)

عاطفة الاحترام

يا سادة! إعلموا أن هذا كله بسبب عاطفة الاحترام الشديد والمبالغة فيها. إن عاطفة الاحترام لدينا عاطفة شديدة حادة قاطعة لدرجة أنها: لا تسمح لنا بأن نقرأ القرآن الكريم قراءة فهم وتدبّر، ولا تجعلنا نعدّ أولياء الله الكرام أناساً عاديين، لكنهم وصلوا إلى ما هم عليه باجتهادهم وبتوفيق الله لهم. وعاطفة الاحترام لدينا مثلها مثل التعاطف عند الشعب الإنجليزي، فالناس هناك عرفوا أن العلماء يُشرِّحون الضفادع فاحتجوا وقالوا إن هذا ظُلم، وخرج ممثلون عن الشعب والتقوا بالعلماء وحذروهم من ظلم الحيوان، وشرح العلماء للوفد الأمر، قالوا: هذا العمل من أجل رفاه البشرية وصالحها، قال الوفد: إن رفاه البشرية وصالحها يمكن أن يتم بطريقة أخرى، ولم يفهم العلماء هذا القول ولم يتراجعوا عن تشريح الضفادع. فازداد تعاطف الناس أكثر وأكثر مع الضفادع، واشتعل حماسهم، فذهبوا إلى المعامل، وانتظروا العلماء في صمت، وحين قدموا هجموا عليهم، وهكذا ومن أجل الضفادع قام أناس أسكرتهم العاطفة الجياشة بقتل علماء أبرياء.

إن هذه العاطفة الجياشة جعلت بعض المسلمين ممن جمحوا في خيالاتهم يقومون بوضع القرآن الكريم في محافظ حريرية ويغلقون عليها، ومن ثم حرموا المسلمين من قراءة القرآن الكريم، واكتفوا بأن ينظروا إليه من خلف زجاج خزائن الكتب.